الفصل الثالث

الإيمانُ بالرسل والأنبياء

صلوات الله وسلامه عليهم

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثالث

الإيمانُ بالرسل والأنبياء المرسلين

الرُّسُلُ الكرام صلواتُ اللّه وسلامه عليهم، مجموعة من البشر، اختارهم اللّه عزّ وجلّ، ليبلّغوا الناسَ أوامرَ اللّه إلى عباده، ويرشدوهم إلى طريق الخير والسعادة، حتّى لا يبقى لأحدٍ من الخلق، عذرٌ عند اللّه يوم القيامة، فيقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير.!

وقد أرشد تعالى إلى هذه الحكمةِ والغاية بقوله جلّ ثناؤه:

﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٥].

ولقد خصَّ اللّه تعالى الأنبياءَ والمرسلين بالوحي، فَهُمْ وإن كانوا من البشر، إلّا أن اللّه تعالى اصطفاهم واختارهم من بين سائر الناس (بالوحي المقدّس) الذي أوحاه إليهم، بواسطة أمين السّماء (جبريل) عليه السلام، فهو الواسطة بين اللّه تعالى ورسله، كما قال سبحانه: ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ [النحل: ٢].

أراد بالروح: الوحيَ الإلٰهي، وعبَّر عن (جبريل) بالملائكة، تعظيماً وتفخيماً لشأنه، ورفعاً لقدره، لأنه رئيسُ الملائكة، وهو المسمّى بـ(روح القُدُس) و(الروح الأمين).

قال اللّه تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ١٠٢] أي نزّل هذا القرآنَ عليك يا محمد (جبريلُ الأمين) لتثبيت المؤمنين على الإيمان، وتعريفهم أنه كلام الرحمن.

وتأكيداً على أن (جبريل) عليه السلام، هو المكلّف بنزول الوحي على الرسل الكرام، فقد جاء في سورة الشعراء قولُه سبحانه: ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ

﴿ٱلْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٥].

الرسولُ إذاً من البشر، ليس له من صفات الإله الخالق شيء، إنّما هو عبدٌ كسائر العباد، أوحى اللّه إليه بالرسالة، وهذا ما أُمر به الرسولُ ﷺ وسائرُ من سَبَقه من الرسل، أن يعلنوه على رؤوس الأشهاد ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ . ! [النحل: ٤٣].

اللّهُ عزَّ وجلَّ خصَّ الرسلَ بالوحي

إن الرُسُلَ بشرٌ، وهم رجالٌ، ولكنَّ اللّه ميَّزهم عن سائر الناس (بالوحي الإلهي) فمن زعم أنَّ لهم شيئاً من صفات ذي العزة والجلال، فقد أعظمَ على اللّه الفِرْية، لأنَّ البشر جميعاً يموتون، واللّهُ وحدَه هو (الحيُّ القيوم)، حتى السيد (المسيح) عيسى بن مريم عليه السلام، ما دعا أحداً إلى عبادته، إنما دعاهم إلى عبادة الواحد الأحد، وسيكون له موقف يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، يعلن فيه براءته ممّا نَسَبه إليه أهلُ الضلال من (الألوهية) وأنه شريك مع اللّه في (الربوبيّة)، يُعلنُ ذلك في مشهد حافلٍ (يوم الحشر الأكبر) حيثُ يلتقي فيه جميع البشر، ويسأله ربُّ العزة والجلال، تَبْكيتاً لمن عَبَده من دون اللّه، وإخزاءً لهم، يتوجّه إليه هذا السؤال:

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦].

السيد المسيح يعلن عبوديته للّه

ثم يعلن عبوديته للّه، في أوضح بيان، وأقطع برهان فيقول عليه السلام:

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧].

وهذا اعتذار منه وبراءة، من ذلك القول الشنيع، ومبالغةٌ منه في الأدب في حضرة ذي العظمة والجلال، يقول سيّدنا عيسى: ما قلتُ لهم إلّا ما كلَّفْتني به من أمر، قلتُ لهم: اعبدوا اللّه خالقي وخالقكم، فأنا عبدٌ مثلكم،

وأنت يا رب الشاهد على ذلك مدة إقامتي بينهم، فلمَّا رفعتني إلى السماء، كنتَ أنتَ الحفيظَ على أعمالهم، والشاهدَ على أفعالهم، وأنت المطَّلع على كل شيء، لا يخفى عليكم أمر من أمور العباد.

وكفى بذلك خِزْياً وتكذيباً لمن عَبَد المسيحَ من دون اللَّه!!

❁❁❁

obeikandl.com

لماذا كان الرُّسُلُ من البشر؟

لمَّا اقتضت حكمةُ اللَّه عزَّ وجلَّ إرسالَ الرسل لهداية البشر، أرسل لهم الرُّسُلَ والأنبياء، وجعلهم من البشر، ليمكن الأخذُ عنهم، والاقتداءُ بهم، لأن الجنس يأتلف مع جنسه، ولو كان الرسل من الملائكة، لَمَا أمكن اللقاءُ بهم، ولا الأخذُ عنهم، ممَّا لا يحقِّق الهدف المنشود.!

ولقد جهل المشركون هذه الحكمة، واعترضوا على رسول اللَّه ﷺ كيف يرسل اللَّه إليهم رجلاً مثلهم؟ وحكى القرآن عنهم ذلك الأمر الذي استبعدوه، فقال عزَّ شأنه: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾ [يونس: ٢].

المرادُ بالناس هنا: (كفَّار مكة)، الذين بُعث فيهم رسولُ اللَّه ﷺ، والآيةُ ردٌّ عليهم حين قالوا: اللَّهُ أعظم من أن يكون رسولُه بشراً!

أمَا وَجَد اللَّهُ من يرسلُه إلينا، إلَّا يتيمَ أبي طالب؟!

بسفاهة المشركين وحماقتهم

لقد استبعدوا ـ لحماقتهم وجهلهم ـ أن يكون الرسولُ من البشر، ولم يستبعدوا أن يكون (الإلهُ) الذي يعبدونه من الحَجَر، حيث عبدوا الأوثان والأصنام!!

طلب المنكرون لرسالته ﷺ، أن يكون الرسولُ المبعوثُ إليهم من الملائكة لا من البشر ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ [الأنعام: ٨] وقد ردَّ اللَّه عليهم هذا الاقتراحَ السخيفَ، ولَفَتَ أنظارَهم إلى أن الحكمة تقتضي أن يكون الرسولُ، من جنس المرسل إليهم، ليُمْكِنَهُم التحدُّث معه، واللقاء به، والأخذَ عنه، فلو أرسله من الملائكة، لكان من الضروري أن يرسله في صورة رجل، لعدم استطاعة البشر، رؤيةَ المَلَك في (صورته

المَلَكيَّة)، ولهذا عقَّب تعالى على الطَّلب، بقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩].

والغرضُ من الآية تأكيدُ استحالة أن يكون الرسولُ من الملائكة، لأنه لا طاقة لهم برؤية المَلَك بصورته الملكية، التي خلقه اللَّه عليها!! وحين طلب الرسول ﷺ من جبريل أن يراه بصورته الملكية، فَتَحَ جناحين من أجنحته، فسدَّ ما بين المشرق والمغرب، فأُغمي على الرسول ﷺ من هول ما رأى!! ولهذا كان جبريلُ عليه السلام يأتي الرسولَ ﷺ بصورة إنسان من البشر، أو صورة (دحيةَ الكلبيِّ) أحد الصحابة الكرام، ولا يأتيه بصورته المَلَكية.!

اعتراض المشركين على رسالة خاتم الأنبياء ﷺ

لم يدرك المشركون هذه الحكمة الإلٰهية، من بعثة الرسل من البشر، فاعترضوا وأنكروا أن يكون محمد ﷺ رسولاً إليهم، فقالوا: كيف يكون رسولاً؟ وهو رجل مثلُنا يأكل ويشرب، وينزل إلى الأسواق لقضاء حاجاته؟ هلَّا كان من الملائكة، أو مثلَ الملوك يعيش في رفاهية ونعيم، بين الحدائق الناضرة، والقصور الشامخة، لتظهر عليه آثار الأنبياء والعظماء، فنصدّقه في دعوى الرسالة!؟

هذا ما قصَّه علينا القرآن الكريم، حول اعتراضهم على نبوة محمد ﷺ فقال: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٧ ـ ٩].

نظرة الجهلاء إلى النبوَّة والرسالة

هذه هي نظرةُ الجهلاء والسفهاء، ينظرون إلى النبوة والرسالة، نظرة العلوّ والكبرياء، فالرسول في نظرهم يجب أن يكون من الملائكة، أو من الملوك والعظماء، وأمَّا أن يكون من عامَّةِ الناس، فهذا نقصٌ في حقِّه وفي مقامه الشريف، وقد حكى اللَّه ذلك عنهم، بقوله تقدست أسماؤه:

obeikandl.com

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف: ٣١، ٣٢].

وما عرفوا سرَّ الاختيار والاصطفاء لهذا الأمر ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٤] بين الرسولِ والمرسلِ إليهم، فلو كان سُكَّانُ الأرض من الملائكة، لبعث الله إليهم مَلَكاً من جنسهم، إذْ جَرَت حكمةُ الله تعالى، أن يبعث الجنسَ إلى جنسه، وهذا ما وضحته الآية الكريمة: ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ۝ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٤، ٩٥].

والمعنى: أي ما منع هؤلاء الكفار من الإيمان بالقرآن، والتصديق برسالة محمَّدٍ عليه الصلاة والسلام، إلَّا اعتقادُهم استحالةَ أن يأتي الرسولُ من البشر، ولو كان أهل الأرض من الملائكة، لبعث الله الرسولَ من الملائكة، ولكنهم بشر، فالرسولُ إليهم ينبغي أن يكون من البشر، لأن الجنس يألفه الجنس.!

مطالبُ تعجيزية يطلبها المشركون من الرسول ﷺ

وإمعاناً من المشركين في الضلال، وتكذيبهم لأشرف الخلق محمد عليه الصلاة والسلام، طلبوا منه مطالب تعجيزية، من أشنعها وأقبحها أن يأتيهم محمد بالله عزَّ وجلَّ، وبالملائكة معه، ليشهدوا بصدق رسالته، وأن يروا اللَّهَ والملائكةَ مقابلة وعياناً، دون سِتارٍ ولا حجاب، اقرأ هذه الآياتِ الكريمةَ:

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ۝ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۝ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۝ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ ۖ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٠ ـ ٩٣].

خمسة اقتراحات لكفار مكة

خمسةُ مطالبَ تعجيزية، طلبوها من رسول الله ﷺ حتى يُصَدِّقوا برسالته:

الأول: أن يُخرج لهم في مكة عيناً غزيرةً من الماء، تتدفَّق بالماء السلسبيل.

الثاني: أن يكون لمحمد حديقةٌ غنَّاء، وبستانٌ فيه من أنواع النخيل والأعناب، تجري فيها الأنهار بقوة وغزارة، لتدلَّ على غناه وعظمته.

الثالث: أن يُسْقِط عليهم السماءَ قِطَعاً، قِطَعاً، ويأتي اللّهُ ومعه الملائكة فيشهدوا لمحمد ﷺ بالرسالة.!

الرابع: أن يكون للرسول ﷺ، قصرٌ فخمٌ ضخم من ذهب، لا من حجر وطين، كبرهان على محبة اللّه له.

الخامس: أن يصعد إلى السماء ويرى ملكوتها، ويخبرهم عمَّا شاهده من عجائب الكون، ثم يأتي لهم بكتاب مسطَّر من ربِّ العالمين، أن محمداً عبده ورسوله.

هذه هي اقتراحات المشركين ومطالبُهم، وما هي في الحقيقة إلَّا سفاهات وحماقات، تدلُّ على بالغ الغطرسة والكبرياء، ولذلك خُتمت الآيات الكريمة بقوله سبحانه: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾!؟

أي قل لهم يا محمد: يا سبحان اللّه!! هل أنا إلهٌ حتى تطلبوا منِّي أمثالَ هذه الخوارق؟ ما أنا إلا رسول من البشر، بعثني اللّه إليكم، فَلِماذا هذا الجحود والعناد!؟

o p e i x a n a l . c o m

كم عددُ الرسل والأنبياء؟

لقد بعث اللّه إلى البشر، رسلاً وأنبياء، لا يَكادون يُحْصَون عدداً، اختارهم اللّه واصطفاهم من بين سائر الخلق، فلم يرسل اللّه لعباده رسولاً واحداً أو اثنين، أو مائةً أو مائتين، وإنما بَعَثَهم كثرةً كثيرة، لهداية الخلق وإرشادهم إلى اللّه تعالى.!

أولهم (آدم) وآخرهم (محمد) خاتمُ الأنبياء والمرسلين، صلواتُ اللّه وسلامه عليهم أجمعين.

أمّا عدد الرسل فهم جمعٌ غفير/ ٣١٣/ ثلاثمائة وثلاثة عشر رسولاً، ذُكر منهم في القرآن الكريم/ ٢٥/ خمسة وعشرون رسولاً، ذُكروا مفرّقين في سور عديدة من القرآن الكريم، وفي سورة الأنعام عدَّ اللّه منهم/ ١٨/ ثمانية عشر رسولاً، مجتمعين في آية واحدة، هي قوله تقدست أسماؤه:

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ • وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ • وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ • وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٣ ـ ٨٦].

هذا عددهم (ثمانية عشر) رسولاً، وأمّا بقيّةُ الرسل السبعة، فقد وَرَد ذكرُهم متفرقاً في سُوَر عدة من القرآن الكريم.

وقد جمع بعضُ الفضلاء عَدَدهم في بيتين من الشعر، فقال:

في «تِلْكَ حُجَّتُنَا» مِنْهُمْ ثَمَانِيَةٌ ... مِنْ بَعْدِ عَشْرٍ وَيَبْقَى سَبْعَةٌ وَهُمُو

إِدْرِيسُ، هُودٌ، شُعَيْبٌ، صَالِحٌ، وكَذَا ... ذُو الكِفْلِ، آدَمُ، بِالمُخْتَارِ قَدْ خُتِمُوا

من يجب الإيمان بهم تفصيلاً؟

أقول: هؤلاء المذكورون في القرآن الخمسة وعشرون، يجب الإيمان بهم تفصيلاً، بمعنى أن من كذَّب واحداً منهم أو أنكر رسالته، اختلَّ إيمانه، وارتدَّ عن الدين، لأنه كذَّب الله في خبره، فإن الله تعالى يقول:

﴿ ۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴾ [النساء: ١٦٣] فذكرهم تعالى بأسمائهم، وأخبر أنه أوحى إليهم، فالمنكِرُ لرسالةِ أحدٍ منهم، مكذِّبٌ لله تعالى، فمن كفر بنبيٍّ فقد كفَر بسائر الأنبياء.!

بدأ تعالى بأفخم الأنبياء (محمد) ﷺ، ثم بشيخ الأنبياء (نوح) عليه السلام، ثم بأب الأنبياء (إبراهيم) عليه السلام، وهو الذي تفرَّعتْ شجرة الأنبياء منه، كما قال سبحانه: ﴿ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ ﴾ [الحديد: ٢٦].

ثم ذكر أكابرَ أنبياء بني إسرائيل (إسماعيل، وإسحق، ويعقوب، وعيسى، وأيوب، ويونس، وهارون، وسليمان، وداود) عليهم من اللهِ أفضلُ الصلاة والتسليم.

ثم عقَّب على ذلك بقوله سبحانه: ﴿ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ ﴾ [النساء: ١٦٤] فدلَّ على أن هؤلاء المذكورين في القرآن، ليسوا جميعَ الرسل، إنَّما هناك رسلٌ غيرهم، بعثهم الله إلى البشر، يجب الإيمان بهم إجمالاً، أي الاعتقاد بوجود رسل آخرين، لم يذكروا في القرآن الكريم، ويجب علينا أن نعتقد بهم، وهم بقية الرسل الذين أخبر الصادق المصدوق عنهم بأنهم/ ٣١٣/ ثلاثمائة وثلاثة عشر رسولاً، وهؤلاء جميعاً رسل، يجب الإيمان بهم على طريق الإجمال لا التفصيل.!

عدد الأنبياء لا يكاد يُتصوَّر

أمَّا الأنبياء صلوات الله عليهم، فحدِّثْ عنهم ولا حرج، فإن أعدادهم كثرةٌ كثيرة، لا يكادون يُحصون عدداً!!

وقد أخبرنا الرسول ﷺ بأن عددهم مائةٌ وأربعة وعشرين ألف نبي، في حديث صحيح، رواه أحمد في المسند وابنُ حبان في صحيحه، عن (أبي ذَرٍّ

الغِفاريّ) رضي الله عنه أنه قال: (قلتُ لرسول الله ﷺ كم الأنبياء؟ - أي كم عددهم - فقال لي: مائةٌ وأربعةٌ وعشرون ألفاً، فقلت: وكم عدد الرسل؟ فقال: ثلاثمائة وثلاثةَ عَشَر، جمّاً غفيراً)[١].

والرسلُ صلوات الله عليهم، يمثلون ذُروة الكمال، وذُروةَ العبوديةِ لله الواحد الأحد، ويقومون بأعظم مهمة، وهي الدعوة إلى الله، لإنقاذ البشرية من ظلمات الكفر والضلالة، كما بيّن الحقُّ ذلك لرسوله، بقوله سبحانه: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ... ﴾ [إبراهيم: ١] وكذلك حَكَى تعالى عن موسى عليه السلام، المهمّةَ التي بعثه الله بها إلى (بني إسرائيل)، وهي الوظيفة نفسُها التي بعثَ بها جميعَ الرسل الكرام ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ... ﴾ [إبراهيم: ٥].

الفارق بين النبيّ وبين الرسول

والرسولُ أعظمُ مقاماً، وأرفع شأناً من النبي - لأنه كما يعرِّفه علماء التوحيد -: الرسولُ: إنسانٌ من الرجال، أُوحي إليه بشرعٍ، وأُمر بتبليغه.

أمّا النبيُّ: فإنسانٌ من الرجال، أُوحي إليه بشرع، ولم يُؤمر بتبليغه، أي لم ينزل عليه كتاب، وإنما هو كمرشدٍ عامٍّ، يرشد الناس إلى الله تعالى، بخلُقه وسيرته وسلوكه، بينما الرسول فإنه مكلّف بتبليغ دعوة الله إلى عباده ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ [المائدة: ٦٧].

فكلُّ رسولٍ نبيٌّ، وليس كلُّ نبي رسولاً، فهما يلتقيان ويتّحدان في الوحي، ويختلفان في أمر التبليغ، وأمر الكتاب المنزل، لذلك كان عدد الأنبياء كثرةً كثيرة/ ١٢٤/ مائةَ وأربعة وعشرون ألفَ نبيٍّ، ويمكننا تشبيهَ الأنبياء (بالعلماء والدعاة المصلحين)، ففي مكان واحدٍ، وفي مجتمع واحد كان يوجد أنبياءُ متعددون، وقد قتل اليهودُ في يوم واحدٍ (ثلاثةً وأربعين) نبياً، كما يقول ابن مسعود رضي الله عنه، وعنهم قال الله تعالى: ﴿ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [آل عمران: ١٨١].

---

(١) أخرجه أحمد، وابنُ حبان في صحيحه، وانظر تفسير ابن كثير ١/ ٥٠٩.

التفاضل بين الرسل عليهم السلام

الأنبياء والمرسلون ليسوا بمرتبة واحدة من الفضل، بل هم مراتب ودرجات، يتفاوتون بقدرها من المكانة والمنزلة عند اللَّه، فهناك صفوةٌ من الرسل، هم أكابر الأنبياء والمرسلين، يسمون (أولي العزم) وهم خمسة رسُلٍ، فضَّلهم اللَّه على سائر الخلق، (محمدٌ، ونوحٌ، وإبراهيم، وموسى، وعيسى) عليهم من اللَّهِ أفضلُ الصلاة والتسليم.

وقد نظمهم البعض فقال:

أولوا العزم نوحٌ، والخليلُ بنُ آزر وموسى، وعيسى، والحبيبُ محمد

وهم الذين قال اللَّه عنهم: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] سمُّوا أولي العزم: لثباتهم وعزمهم، وتحمُّلِهم الشدائدَ والمشاقَّ في سبيل نشر دين اللَّه، وهم أصحاب أفخمِ الشرائع، وأعظم الرسالات السماوية، الذين اجتهدوا في تأسيسها وتثبيتها.

جاء ذكرهم في سورة الأحزاب، مرتَّباً حسب فضلهم، في قوله تقدَّس ذكره: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧].

قدَّم تعالى نبيَّنا في الذِّكر فقال: ﴿وَمِنكَ﴾ أي ومنك يا محمد أخذنا الميثاقَ، مع أنه آخرُ الأنبياء، تعظيماً له، وتفخيماً لشأنه، وبياناً على سيادته على جميع الأنبياء والمرسلين، ثمَّ عقَّب على ذكره ﷺ بذكر (نوح) شيخ الأنبياء، لأنه كان أطول الرسل عمراً وصبراً، ثم بذكر أبي الأنبياء (إبراهيم) عليه السلام، ثم (موسى) و(عيسى) آخر أنبياء بني إسرائيل، وهم جميعاً أكابرُ الرسل، وأصحاب الرسالات السماوية.

الدليل على تفاضل الرسل

وممَّا يدل على التفاضل بين الرسل، قولُ اللَّه عزَّ وجلَّ: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ

فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ . . .﴾ [البقرة: ١٥٣] وضّح تعالى أن الرسل متفاوتون في الفضل والمنزلة، والمراتب العالية، فمنهم من خصّه الله بالكلام من غير سفير، مثل (موسى بن عمران) حيث قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

ومنهم من رفع الله قدره، وأعلى ذكره، وفضّله على سائر المرسلين، كخاتم النبيين «محمد» ﷺ، حيث أخذ الله العهد والميثاق على جميع الرسل، إن أدركوا حياة الرسول أن يؤمنوا به، وينضَوُوا تحت لوائه ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

إصري: أي عهدي.

قال ابن عباس: (ما بعثَ اللّه نبياً من الأنبياء، إلّا أخذ عليه الميثاقَ، لئن بعثَ اللّهُ محمداً وهو حيٌّ، ليؤمِنَنَّ به ولينصُرُنّه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته)[١].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥] فلا غرابة إذاً أن يكون بين الأنبياء تفاضل، وأن يكون خاتم النبيين أفضلهم، وأعلاهم منزلةً عند اللّه، كما وضّح ذلك صلواتُ اللّه وسلامه عليه بقوله:

(أنا سيدُ ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر، وما من نبيٍّ آدم فمن سواه، إلّا تحت لوائي..)[٢].

قوله ﷺ (ولا فخر) أي لا أقول ذلك افتخاراً واستكباراً، إنما أقوله تحدُّثاً بنعمة اللّه عليَّ، وشكراً له على ما أولاني من الفضل، ورفعة القدر.

ولا يتعارض هذا التفضيلُ مع قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ . . .﴾ [البقرة: ٢٨٥].

---

(١) تفسير الحافظ ابن كثير ١/ ٣٣٢.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه برقم (٣١٤٧).

ما المراد بالتفريق بين الرسل؟

ليس المراد بالتفريق بين الرسل: هو التفضيلُ بينهم، وإنما المعنى: لا نؤمن ببعضٍ، ونكفر ببعض، كما فعل اليهود والنصارى، إنما نؤمن بالجميع، دون تفريقٍ بين واحد وآخر.

وقد جاء توضيح هذا المعنى في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۞ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١].

قال المفسرون: نزلت الآية في (اليهود والنصارى)، آمنت اليهودُ بالتوراة وبموسى، وكفروا بمحمد وعيسى، وآمنت النصارى بالإنجيل وعيسى، وكفروا بالقرآن ومحمد، وتركوا الإسلامَ دينَ اللَّهِ الذي بعث به رسله[1].

❁❁❁

(١) انظر تفسير الحافظ ابن كثير ١/ ٥٠٩.

openkandl.com

صفات الرسل الكرام صلواتُ اللَّه عليهم

إن صفات الرسل التي تميّزهم عن غيرهم من البشر ـ هي الصفات العاليةُ الحميدة، التي أكرمهم اللّه بها، وهذه الصفاتُ واجبة في حقهم، بمعنى أن الرسول والنبيَّ، لا بدَّ أن يكون متخلّقاً بها، فلا يمكن أن يكون الرسول كذاباً، أو خائناً، أو بليدَ الذهن غير نبيه، أو كاتماً لشيء من أمور الوحي، أو أن يخوض في المنكرات والمعاصي، كغيره من سائر البشر، وهذه الصفات الجليلة، التي أكرمهم اللّه بها خمسةٌ، وهي كالآتي:

١ ـ الصدقُ في الحديث.

٢ ـ الأمانةُ في الوحي.

٣ ـ التبليغُ للرسالة.

٤ ـ الفَطَانةُ في العقل والذّكاء.

٥ ـ العصمةُ من الذنوب والكبائر.

وسنذكر هذه الصفات بشيء من التوضيح والبيان فنقول:

obeikandl.com

الصفةُ الأولى

صفةُ الصدق في الرسول

أولاً: صفةُ الصدق: يجب أن يكون النبي صادقاً، لا يجري على لسانه شيء من الكذب، بل لا يخطر على باله الكذب، لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ﴾ [النحل: ١٠٥].

والآية الكريمة جاءت للردّ على سفهاء مكة، وتبرئةً لساحة النبيّ ﷺ ممّا نسبه إليه المشركون، فقد اتهموه بتهمةٍ شنيعةٍ فظيعة، اتهموه بأنه ساحر، وأنه يفتري ويكذب على الله، كما حكى القرآنُ ذلك عنهم، بقوله تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤].

وكأن الآية تقول: ليس محمد برجل كذاب، لأن الكذب إنما يفتريه شرارُ الخلق، ولا يكذب على الله، إلّا من لم يؤمن بالله وآياته، ولا يمكن أن يصدر مثل هذا من (محمد) النبيّ الصادق الأمين، والكذبُ جريمة فاحشة، لا يُقدم عليها مؤمن، فضلاً عن سيد الأنبياء!

والعجيب في أمر المشركين، أنهم أنفسهم كانوا يسمُّون الرسولَ (الصادق الأمين) فكانوا يقولون عنه قبل النبوة: جاء (الصادق الأمين)، وقال (الصادق الأمين)، وما كانوا يقولون: جاء محمد، ولا ذهب محمد، فلمّا نزل عليه الوحي، وقال لهم: أنا رسولُ الله، اتهموه بالكذب، والافتراء على الله، وقالوا عنه: ساحر مجنون.

دعوةُ النبي ﷺ لقبائل قريش

ولمّا نزلت عليه الآية الكريمة ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] صعد ﷺ على جبل الصفا، وجعل ينادي بطونَ قريش، حتى اجتمعوا عنده، فقال لهم: (أرأيتكُم لو أنني أخبرتكم أن خيلاً بالوادي، تريد أن تُغير عليكم،

obeikandl.com

أكنتم مصدّقي!؟ قالوا: نعم يا محمد، ما جرَّبنا عليك كذباً قطُّ، فقال لهم: إني لكم نذيرٌ بين يديْ عذاب شديد، فسكتوا، فقال له أبو لهب: تباً لك يا محمد، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت السورة الكريمة: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١].

وهذا إقرار منهم بصدق محمد ﷺ، ألَا يكفيهم أن يقولوا: ما جرَّبنا عليك كذباً قطُّ، ما جربنا عليك إلَّا صدقاً!!

وهذا هو (هرقل) ملِكُ الروم، حين جاءه خطاب من الرسول ﷺ يدعوه فيه إلى الإسلام، جَمَع من كان عنده من العرب، الذين كانوا في بلاد الشام، وسألهم عن محمد ﷺ أسئلة عديدة، من جملتها قال لهم: هل جرَّبتم عليه كذباً؟! ـ أي هل كذب عليكم قبل دعوى النبوة؟ ـ قالوا: لا.

فكان جوابه الصريح القاطع لهم أن قال: (ما كان لِيَذَر الكذبَ على الناس، ويكذبَ على اللَّه)[1] أي لا يُعقل أن يترك الكذبَ على الناس، ثم يكذبَ على اللَّه، أعظم أنوع الكذب، ويدَّعي أنَّ اللَّه بعثه رسولاً، واللَّهُ تعالى يقول: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧]. فكلُّ هذه الأخبار والنصوص، تشير إلى أنَّ صفة (الصِّدق)، هي خصلة متأصِّلةٌ في الأنبياء والمرسلين، فلا يمكن لرسول أن يكذب بأيِّ وجهٍ من الوجوه، لئلا يدخل الشكُّ في الوحي، الذي أنزله اللَّه تعالى على عباده!!

❁ ❁ ❁

(١) جزء من حديث طويل أخرجه البخاري، انظر فتح الباري ١/ ٣٢.

obeikandl.com

الصفةُ الثانية

صفة الأمانة في الوحي

ثانياً: صفة الأمانة أن يكون النبيُّ أميناً على الوحي، فيبلِّغ الرسالة كما أنزلها اللَّه عليه، دون تقصير أو تفريط، أو زيادة أو نقصان، لأن الأمانة خُلُق الأنبياء والمرسلين، وقد اختارهم اللَّه واصطفاهم، لما فيهم من هذه الخصال الحميدة ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

أي اللَّه جلَّ جلاله أعلمُ بمن هو أهلٌ للرسالة أن يجعلها فيه، وأن يخصَّه بهذا الشرف العظيم (شرف النبوة) فإنَّ النُبوَّة لا تأتي عن طريق الجاه والمال، والحَسَب والنسب، وإنما بصفاء النفس، وطهارة القلب.

ولقد اشتهر النبي ﷺ عند العرب، بصفة الأمانة في الدين، والأمانة في المال والودائع، فكانوا إذا أرادوا أن يستودعوا أموالهم أحداً من الناس، جعلوها عند رسول اللَّه ﷺ لما يعرفون من أمانته.!

الأمانة صفة كل نبيّ

إنَّ الأمانة صفة كلّ نبيٍّ، لا سيما الأمانة على الوحي، وتبليغ رسالة اللَّه إلى عباده، فلا يُتصوَّر أن يكون الرسول خائناً، لأن الخيانة من أكبر الجرائم، وأقبحها وأشنعها، وقد قال اللَّه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٧] فمن لم تكن عنده أمانة، لم يكن عنده دين، ولقد نزل القرآن على الرسول ﷺ، فلم يُخْفِ منه حرفاً واحداً، ولا آية واحدة، وإنما نَقَله بكل نزاهة وأمانة، حتى الآيات التي فيها عتاب له ﷺ على بعض أمور صدرت منه، كحادثة عبوسه في وجه الأعمى، وحادثةِ إذنه لبعض المنافقين في عدم الخروج للجهاد، وأمثال ذلك.

obeikandl.com

ولقد عدَّ النبيُّ ﷺ من علامات المنافق أنه (إذا ائتمن خان)[1] فكيف لا يكون النبيُّ أميناً على أعظم شيء وأقدسه، ألَا وهو (أمانة الوحي)؟

وممَّا يدلُّ على عِظَم أهمية الأمانة، وأنها شرطٌ لكمال الإيمان، ما رواه الشيخان عن (حذيفةَ بن اليمان) رضي اللَّه عنه أنه قال:

(حدَّثَنا رسولُ اللَّه ﷺ حديثين، رأيتُ أحدهما وأنا أنتظر الآخر، حدَّثنا أن الأمانة قد نزلت في جَذْر قلوب الرِّجال ـ أي في أعماق قلوب أصحابه السابقين إلى الإسلام ـ ثم نزل القرآنُ، فعلموا من القرآن، وعَلِموا من السنة ـ أي طَبقوا ما تعلَّموه من الكتاب والسنة ـ ثم حدَّثنا عن (رفع الأمانة)، فقال: ينام الرجل النَّوْمَة فتُقبضُ الأمانة من قلبه، فيظلُّ أثرُها مِثْلَ الوَكْت ـ أي يبقى لها أثر قليل في نفسه ـ ثم ينام فتُقبضُ الأمانةُ من قلبه، فيصبحُ الناسُ يتبايعون، فلا يكاد أحد يؤدِّي الأمانة، حتى يُقال: إن في بني فلانٍ رجلاً أميناً..!

حتى يُقال للرجل: ما أجلَدَه؟ وما أظرَفَهُ؟ وما أعقله!! وما في قلبه مثقال حبة من خردلٍ من إيمان.

ولقد أتى عليَّ زمانٌ وما أبالي أيكم بايعتُ، وأما اليوم فما كنت أبايع منكم إلَّا فلاناً، وفلاناً)[2].

❁❁❁

(١) الحديث أخرجه البخاري ١/ ٨٣ بلفظ: (آيةُ المنافق ثلاثٌ: إذا حدَّثَ كذَبَ، وإذا وَعَد أخلَفَ، وإذا ائْتُمِن خَان) وأخرجه مسلم رقم (٥٩) وزاد فيه (وإن صامَ، وصلَّى، وزعم أنه مسلم) وانظر جامع الأصول ١١/ ٥٦٩.

(٢) هذا طرف من حديث رواه البخاري في الرِّقاق رقم (٦٤٩٧) ومسلم رقم (١٤٣) باب رفع الأمانة والإيمان.

obeikandl.com

الصفة الثالثة

صفة التبليغ

ثالثاً: الصفة الثالثة من خصائص وسماتِ الأنبياء (التبليغ) أي تبليغ (الوحي الإلٰهي) على أكمل الوجوه للناس، فهذه صفة كلّ نبيّ بعثه اللّٰه إلى قومه.

هذا هو (نوح) عليه السلام، بلّغ قومه رسالة ربه، وقصّ علينا القرآنُ قصته في سورة كاملة، تسمى (سورةَ نوح) وشهد اللّٰه له بذلك ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۞ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾ الآيات [نوح: ١ ـ ٣].

وهذا نبيُّ اللّٰه (شعيب) عليه السلام يقول عنه القرآن الكريم: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٩٣].

وهذا سيّدُ الرسلِ وخاتمُ الأنبياء، يأمره ربُه أن يبلّغ الرسالة التي أرسله اللّٰه بها، وأن لا يخاف على نفسه أحداً من الكفار، فاللّٰه له ناصر وحافظ ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: ٦٧].

أي بلّغْ رسالةَ ربك جميعها، فإن كتمت شيئاً فما أدّيتَ الأمانة، ولا تخش أحداً من الأعداء، فإن اللّٰه عاصمُك من شرّهم!! وهذه ضمانةٌ من اللّٰه لرسوله بالحفظ والعصمة.

عصمةُ اللّٰه عزَّ وجلَّ وحفظُه لرسوله ﷺ

رُوي أن النبيّ ﷺ كان يحتاط لنفسه من الأعداء، من كفار مكة، ومن اليهود، فكان له حَرَسٌ يحرسونه بالليل، فقد روى الترمذيُّ عن عائشة رضي اللّٰه عنها أنها قالت:

obeikandi.com

(كان رسول الله ﷺ يُحرس ليلاً، فلما نزلت هذه الآية: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أخرج رأسه من القُبّة ـ أي قُبّة الدار ـ وقال: يا أيها النّاسُ انصرفوا، فقد عصمني اللّه تعالى)(١).

ولقد خصّ اللّه أمّة محمد ﷺ بخصوصية كريمة، هي الشهادة على الأمم يوم القيامة، بأنّ رسلهم قد بلّغوهم دعوة اللّه ورسالته، رفعاً لقدر هذه الأمة المحمدية!

روايةُ الإمام البخاري

روى البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي اللّه عنه أنه قال: قال رسول اللّه ﷺ (يُدعى نوحٌ يومَ القيامة، فيقول: لبّيْك وسعْدَيْك يا ربُّ!!

فيقولُ اللّهُ له: هل بلّغْتَ؟ فيقول: نعم يا ربّ! فيقال لأمته: هل بلّغكم نوحٌ؟ فيقولون: ما أتانا من نذير!!

فيقول اللّه لنوح: من يشهد لك؟

فيقول: محمد وأمته، فيُؤتى بنا فنشهد أنه قد بلّغ الرسالة، فذلك قولُه جلّ ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ...﴾(٢) [البقرة: ١٤٣].

(وَسَطاً): أي خياراً عدولاً، لتشهدوا على الأمم يوم القيامة أن رسلهم بلّغتهم، ويشهد عليكم الرسول، فيشهد بصدقكم ويزكّيكم.!

شهادتنا على الأمم بخبر اللّه القاطع

وقد يقول قائل: كيف نشهد يوم القيامة، أنّ نوحاً والأنبياء، قد بلّغوا أممهم الرسالةَ، والوحيَ الإلٰهي، ولم نحضر زمانهم!؟

والجواب: أن الكفّارَ حين يطعنون في شهادتنا، ويزعمون أنها (شهادة زور) لأننا لم نشهد نوحاً، ولا غيره من الأنبياء، فنقول يا ربنا: إنك بعثت

(١) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب التفسير رقم (٣٠٤٩).
(٢) الحديث أخرجه البخاري في التفسير ٨/ ١٣٠ والترمذي رقم (٢٩٦٥).

إلينا رسولاً، وأنزلتَ عليه كتاباً، وقلتَ لنا فيه: بأن نوحاً قد بلَّغ قومَه رسالة ربه، في كتابك العزيز: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ [نوح: ٢، ٣] فنحن نشهد بشهادة اللَّه عزَّ وجلَّ، وكفى بها شهادة!

يستحيل على الرسل عدم التبليغ

ثم نقول من المستحيل أن يكتم أحد تبليغ الدعوة، لأنها أمانةٌ ائتمنهم اللَّهُ عليها، فكيف يكتم أحد من الأنبياء، تبليغ كلام اللَّهِ عزَّ وجلَّ إلى عباده، واللَّهُ تبارك وتعالى يلعن من يكتم شيئاً من الوحي، ويقول متوعداً ومهدِّداً ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩] فهل يُتصور بعد هذا الوعيد الشديد، أن يكتم أحد من الرسل والنبيين، شيئاً من الوحي المنزَّل؟ هذا شيء مستحيل!!

❁ ❁ ❁

obeikandl.com

الرسول ﷺ لم يكتم شيئاً من الوحي

تقول أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها: (لو كتم محمد ﷺ شيئاً ممَّا أوحي إليه من كتاب الله تعالى، لَكَتَم هذه الآية: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ . . .﴾ الآية [الأحزاب: ٣٧].

فقد كانت عتاباً له ﷺ وقد بلَّغها رسول الله ﷺ ولم يكتمها عن أحد من الناس، أليس هذا أعظم برهان على تبليغ الرسول ﷺ، لكلّ ما أوحاه الله له، حتى ولو كان فيه العتاب له؟

والآية نزلت في قصة زواج النبي ﷺ بالسيدة (زينب) رضي الله عنها بعد أن طلَّقها (زيد بن حارثة) الذي كان قد تبناه الرسول ﷺ، حتى كان يُدعى (زيدَ بن محمد) وقد أمر الله رسوله أن يتزوج بها، بعد أن يطلِّقها زيد، لإبطال (حكم التبني) الذي كان سائداً عند العرب، وقد أوحى الله إلى رسوله، بأنها ستكون زوجتَه، بعد فراق زيد لها، ولكنَّ الرسول أخفى هذا الأمر، حياءً وحِشْمةً، وصيانةً لعرضه من ألسنة السفهاء المنافقين، أن يقولوا: إن محمداً تزوَّج بزوجة ابنه، فاللَّهُ عاتبه على هذا، وزوَّجه بها بنفسه، بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

ولهذا كانت السيدة (زينب) تفخر على سائر زوجات النبي ﷺ، وتقول لهنَّ: زوجكنَّ أهاليكنَّ، وزوَّجني ربي من فوق سبع سمواته.!

وكذلك بلَّغ الرسول ﷺ عتاب الله له في قصة (عبد الله بن أم مكتوم) وقد كان رجلاً ضريراً، جاء يسأله عن بعض أمور الدين، فعبس في وجهه وأعرض عنه، لأنه كان مشغولاً مع بعض زعماء قريش، يدعوهم إلى الإسلام، رجاء أن يُسلم بإسلامهم غيرُهم، فنزلت هذه السورة الكريمة: ﴿عَبَسَ

﴿وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ الآيات [عبس: ١ ـ ٣]. ويُقال: إنَّ رسول الله ﷺ لم يغتمَّ في عمره، كغمِّه حين أُنزلت عليه سورة (عبس) لأن فيها عتاباً شديداً له، ومع ذلك بلَّغ هذا الوحي، مع ما فيه من العتاب الشديد.!

قال ابن زيد: (لو كان محمد ﷺ كاتماً من الوحي شيئاً لكَتَم هذا)[1].

الرسول ﷺ بلَّغ كلَّ كلمة وكلَّ آية

وممَّا يدلُّ دلالة قاطعة ساطعة على أن رسول الله ﷺ بلَّغ كل آية، وكلَّ كلمة، بل كل حرف من كتاب الله تعالى، دون تغيير ولا إسقاطٍ لشيء من كلامه سبحانه، ما جاء في بعض الآيات والسور، من لفظةِ ﴿قُلْ﴾ كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ ...﴾ [الجن: ١] فبلَّغها كَمَا نزلت عليه، ولم يقل: (أوحيَ إليَّ) ولا (يا أيها الكافرون) ولا (الله أحد) وهكذا أُمر رسولُ الله أن يقول للناس ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] فأُثبتت في القرآن، كما نزلت عليه ﷺ، ولم يُحذَف منها حرف واحد.

❁❁❁

(١) أخرجه الحافظ الطبراني، وانظر تفسير ابن كثير ٣/ ٥٦٩.

obeikandl.com

الصفةُ الرابعة

صفةُ الفَطَانة

رابعاً: الصفة الرابعة: الفَطَانة، أن يكون الرسول ذا فطنة ونباهة، وذكاءٍ شديد، لأنه سيواجه طغاةً فجرة، وكفاراً معاندين للحقّ، فلا بدَّ أن يكون مسلَّحاً بالنباهة والذَّكاء، والحجة المُفْحِمة، التي يقصم بها ظهر الباطل.!

انظر إلى الخليل (إبراهيم عليه السلام) في مناظرته للطاغية الجبار (النمرود) الذي ادَّعى الربوبية، وزعم أنه إلٰه يعبد من دون اللّٰه، وبلغ به الفجورُ والطغيانُ، أن يجادل ويخاصم، في أمر وجود اللّٰه ووحدانيته.

اقرأ قصته في سورة البقرة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

دخل إبراهيمُ عليه السلام على الطاغية الجبَّار (النمرود) الذي ادَّعى الألوهية، وتقمَّصَ ثوب الربوبية، فدعاه إلى اللّٰه عزَّ وجلَّ، وأخذ يجادله في أمر دعوى الربوبية، فقال له إبراهيم: إن الدليل على وجود ربي، أنه إلٰه عظيم قدير، ينشئ الخلقَ من العدم فيحييهم، ويخلق الحياة والموت، فيحيي ويميت، وهذا أعظم برهان على وجود الرحمن، الذي أدعوك إلى الإيمان به!

فكان جواب الفاجر له: وأنا أيضاً إلٰهٌ أُحيي وأُميت!! قال: كيف؟ دعا برجلين من السجن، كان قد حُكم عليهما بالإعدام ـ فأطلق سراح الأول، وقال: هذا أحييتُه، وأمر بقطع عُنق الثاني وقال: هذا أمتُّه!!

حماقة النمروذ وشَغَبُه في الدليل

لمَّا رأى إبراهيم حماقةَ هذا السفيه، وشَغَبه في الدليل، عَدَلَ إلى أمر آخر، أجدى وأنفعُ في إفحام الخصم، لئلا يجدَ ذلك الطاغية مجالاً للتمويه

والتلاعب، فقال له: إن كنت تدَّعي الربوبية كما تزعم، وأنك تحيي وتميت كما يفعل ربُّ العزة والجلال، فهذه الشمس أمامك، تطلع كلَّ يوم من المشرق وتغرب من المغرب، فأرنا قدرتك الباهرة، اجعلها تطلع من المغرب بدل المشرق ولو مرةً واحدة، لتثبت لنا عظمة ربوبيتك!!

فأصبح الأحمقُ، المتطاول على مقام الربوبية مبهوتاً، لا يستطيع الجواب، وانقطعت حجته أمام الحاضرين، وظهر كذبه للناس، فهل رأيتَ فطنةً ودهاءً، وحجةً أبلغ من هذه الحجة، التي قَصَم بها (إبراهيم) عليه السلام ظهر الباطل، وكشف بها زيف هذا الطاغية الفاجر!؟

إقامة إبراهيم الحجة على عبدة الأصنام

وانظر إليه وهو يقيم الحجة على قومه، عبدةِ الأوثان والأصنام، حيث كسَّر أصنامهم في غيبتهم، وترك الصنم الكبير، وعلَّق في عنقه الفأس، ليستدرجهم إلى أن هذا الصنم، هو الذي فعل ذلك، ليعترفوا بأنفسهم بحقارة ما يعبدون من حجارة صمَّاء بكماء، لا تنفع ولا تضرُّ، إقرأ معي هذه الآيات البينات:

﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ • فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ • قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ • قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ • قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ • قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ • قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥٧ ـ ٦٣].

❁❁❁

تحطيمُ إبراهيم عليه السلام للأصنام

رجعوا من عيدهم، فوجدوا الأصنام محطَّمة مهشَّمة في المعبد، وهنا طار رشدُهم وعقلُهم، وبدأت المحاكمةُ لإبراهيم عليه السلام، وُضع في قفص الاتهام، وتوجَّهوا إليه بهذا السؤال: هل أنت حطَّمت هذه الآلهة يا إبراهيم؟

إنهم لا يزالون يصرُّون على أنها آلهة، وهم يرونها مهشَّمة محطَّمة، ملقاة على الأرض!

وبأسلوب بارع، مع السخرية والتهكم اللاذع، يجيبهم إبراهيم الخليل، بحجةٍ لا يستطيعون لها دفعاً، ممَّا يجعلهم مدهوشين متحيّرين في الجواب: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾؟ يقول لهم الخليل: إن الذي كسر الأصنام وحطَّمها، هو هذا الصنم الكبير، فقد غضب أن تُعبد معه هذه الآلهةُ الصغار فكَسَرها، وإن كنتم تشكُّون في كلامي، فاسألوا الأصنام من كسرها؟

والبرهان على صدق كلامي، أنه بعد أن كَسَرها علَّق الفأس في عنقه، فها هو أمامكم فاسألوه، واسألوا الآلهة من الذي كسرها!!

إقرارهم بأن الأصنام لا تنطق ولا تسمع

قالوا يا إبراهيم: لقد علمتَ أنَّ هذه الأصنام لا تُبصر، ولا تنطق، ولا تسمع، ولا تعقل، فكيف نسألها؟

لقد أقاموا الحجة على أنفسهم، دون شعور ولا تبصُّر، ودون عقلٍ أو إدراك حين قالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ وأية حجة لإبراهيم عليهم أقوى، من أن يقولوا بألسنتهم؛ إنَّ آلهتنا لا تسمع ولا تنطق، وهي جمادات لا تُجيب!

وهنا أمسك الخليل بخناقهم، وجعل يُعنِّفهم ويوبخهم، ويقول لهم:

obeikandl.com

﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ ولمّا عجزوا عن الردّ، وأُفحِموا بالحجة، عَدَلوا عن المحاورة إلى البطش والفتك، كما هو عادة الطغاة حين يفقدون الجواب، يلجأون إلى قوة النار والحديد ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ • قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ • وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨ ـ ٧٠].

هذا نموذج عن نباهة الأنبياء، وقوة ما أُيِّدوا به من البراهين والحجج، وهكذا كلُّ نبيٍّ بعثه الله، أمدَّه بالذكاء الخارق، والنَّباهة والفطانة، واستمع في كتاب الله إلى قصة موسى مع فرعون الجبار، وقصة شعيب مع قومه الأشرار، وإلى جميع قصص المرسلين، ليتبيَّن لك كيف كان جدالهم مع أقوامهم، بالحجة الدامغة، والبرهان الساطع ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

❁❁❁

obeikandl.com

الصفة الخامسة

العصمة عن الذنوب والكبائر

خامساً: الصفة الخامسة: العصمةُ عن الذنوب والمعاصي، فالرسل والأنبياء، معصومون عن الذنوب والمعاصي، ومقارفة الجرائم، وهذه خصوصية لهم، لأن النَّاسَ مأمورون بالاقتداء بهم، وسلوك طريقتهم، كما قال سبحانه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] أي قُدوة حسنة، تقتدون به في سيرته، وسلوكه، وجميع أقواله وأفعاله، فلو حدثت منهم معصية، لكان الناس مأمورين باتّباعهم، وكانوا معذورين عند اللّه في فعل المنكرات، لذلك عَصَمَهم اللّه عزّ وجلّ عن اقتراف الجرائم والآثام، لتبقى سيرتهم عطرة، ويكونوا مثلاً أعلى للبشر في الطاعة للّه، والبعد عن محارمه.!

ولو كان الأنبياء صلوات اللّه عليهم، يقعون في المنكرات والمعاصي، لما بقي هناك من يُقتدى به، ولأصبحت المعصيةُ طاعةً، لأمر اللّه للبشر بطاعتهم.

وما جاء من نسبة بعض الذنوب إلى الأنبياء، فلا يراد به المعاصي والمنكرات، لأنهم معصومون عن مقارفة الجرائم كما بيّنا، ولكنْ ما يفعلونه عن غير قصد، أو ما يحدث منهم عن اجتهاد، لا يُقرُّهم اللّه عليه.

❁❁❁

obeikandl.com

العتاب في أخذ الفداء

مثالُه: أخذُ الفداء من أسرى المشركين في بدر، نزل فيه العتاب لرسول اللّه ﷺ ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ . . .﴾ الآية [الأنفال: ٦٧] أي يُكثر فيهم الجراحات والقتل، حتى يُقلّم أظافر الشرك، فرسولُ اللّه ﷺ لم يَعْصِ أمرَ اللّه في هذا الموضوع، بل استشار أصحابه، في السبعين من أسرى المشركين، فأشار عليه (أبو بكر) بأخذ الفداء منهم، وإطلاقِ سراحهم، وأشار عليه (عمر الفاروق) بقتلهم لأنهم صناديد الكفر والطغيان، فمال قلبُ النبيّ الرحيم، إلى رأي أبي بكر الصدِّيق، فنزل العتابُ للرسول ﷺ في هذه الآية الكريمة، ذلك لأن (غزوة بدر) كانت أولى الغزوات، فكانت الحكمة تقتضي معاملة المشركين بالصَّرامة والحزم، ولذلك نزل العتابُ على أخذ الفداء!

وكاجتهاده ﷺ للإذن لبعض المنافقين، في التخلُّفِ عن الجهاد، فنزل العتاب له عليه السلام، ولم يقرَّه اللّه على ذلك الاجتهاد، في قول اللّه تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣].

العتابُ في ترك الخروج للجهاد

لقد كان المنافقون يأتون إلى رسول اللّه ﷺ، فيستأذنونه في عدم الخروج معه للجهاد، ويعتذرون بمعاذير واهية كاذبة، فكان يأذن لهم في البقاء وعدم الخروج، فعاتبه اللّه على ذلك، لأن اللّه يعلم كذبهم فيما يقولون!!

ولْنمعن النظر في هذا اللطف الإلٰهي بالنبي ﷺ، حتى في العتاب، فقد بشّره اللّه بالعفو، قبل أن يخبره بالخطأ ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾؟

ومن هذه المعاتبة اللطيفة، يتبيَّن لنا بوضوح مكانةَ الرسول ﷺ، وعلوَّ قدره عند ربه، فلم يجابهه بالعتاب على الإذْن لهم، وإنَّما قدَّم العفو والمسامحة على ذلك، ثم بيَّن الحكمة له في خطأ ذلك الاجتهاد، فقال:

obeikandl.com

﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ وكأن الله تعالى يقول لرسوله ﷺ: سامحك الله يا محمد، لمَ أذنتَ لهؤلاء المنافقين؟ وهلّا توقّفتَ في أمرهم، وتركتهم حتى يظهر الصادق منهم في اعتذاره عن الكاذب؟ فقد كانوا مصرّين على عدم الخروج، سواءٌ أذنتَ لهم أم لم تأذن!!

قال سفيان بن عُيينة: انظروا إلى هذا اللطف الإلٰهي، بدأ بالعفو قبل المعاتبة!! فهل سمعتم بمعاتبةٍ ألطفَ ولا أحسنَ من هذا[(١)]؟

العتاب في الاستغفار للمشركين

ومثلُ هذا استغفارُه ﷺ لعمه (أبي طالب) حين دخل عليه وهو يجود بأنفاسه، وعنده صناديد الكفر، كأبي جهل، وأمية بن خلف، فقال له: يا عمّ، قل لا إلٰه إلا الله، كلمةً أشهد لك بها عند الله!!

فقال له أبو جهل: أترغب عن ملّة عبد المطلّب يا أبا طالب؟ فلم يزل رسولُ الله ﷺ يعرضها عليه، ويعيد له تلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخرَ ما كلّمهم به: هو على ملّة عبد المطلب!!

وأبى أن يقول (لا إلٰه إلا الله) فقال رسول الله ﷺ: لأستغفرنَّ لك ما لم أُنه عنك، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسۡتَغۡفِرُوا۟ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓا۟ أُو۟لِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣] ثم بيَّن اللهُ لرسوله، أن استغفار إبراهيم لأبيه (آزر) لم يكن إلّا من أجل وعدٍ وعَدَ به أباه، بقوله: ﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ [مريم: ٤٧] بناءً على رجاء إيمانه، فلمّا تبيّن لإبراهيم أن أباه مصرٌّ على الكفر، تبرّأ من أبيه، وقطعَ صلته به، وامتنع عن الاستغفار له[(٢)]، فقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ﴾ [التوبة: ١١٤].

وأمثال هذه الاجتهادات، لا تُعتبر معصيةً لله، ولا ذنوباً يستحقُّ عليها العقابَ، بل هي مغفورةٌ له، ولكنها بالنسبة لمقام الرسول ـ أيّ رسولٍ كان ـ تُعتبر كأنها ذنبٌ، بالنسبة لمنصبه الجليل، ولا يجوز أن نعتقد أن أحداً من

(١) انظر التفسير الواضح الميسّر (سورة التوبة) ص٤٦٨.
(٢) أصلُ القصة مرويٌّ في صحيح البخاري في كتاب التفسير ٨/٣٤١ فتح الباري.

obeikandi.com

الأنبياء يعصي أمر اللَّه، أو يرتكب جناية وذنباً متعمّداً للمعصية، فالعصمةُ من صفات الرسل، وهذه كما يقول المفسّرون من باب (حسناتُ الأبرار سيئاتُ المقرّبين) أي ما يفعله عامةُ المؤمنين من طاعات وعبادات، تعتبر بالنسبة لمقام الأنبياء، كأنها سيئات ومعاصي يُؤاخذ عليها الإنسان.

انظر إلى صَلاتنا وما فيها من تقصير، لعدم الخشوع فيها، وعدم استحضار عظمة اللَّه وجلاله، لو صدرت من أحدٍ من الأنبياء، لكانت ذنباً يؤاخذ عليه النبيُّ، فلقد كان رسول اللَّه يصلّي من الليل حتى تورّمتْ قدماه، فلمَّا قيل له: لمَ تشقُّ على نفسك وقد غفر اللَّه لك؟ قال: أفلا أكون عبداً شكوراً؟

كلامُ الحافظ ابن كثير حول الموضوع

قال الحافظ ابن كثير: في قول اللَّه عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ١، ٢] **نزلت هذه الآيات على رسول اللَّه ﷺ، مرجعه من صلح الحديبية**، حين صدَّه المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام، وحالوا بينه وبين العمرة، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة، فأجابهم إلى ذلك، على كُرهٍ من جماعةٍ من الصحابة، منهم (عمر بن الخطاب) رضي اللَّه عنه، وجعل ذلك (فتحاً) باعتبار ما فيه من المصلحة، حتى قال ابن مسعود: إنكم تعدُّون الفتح (فتح مكة) ـ وقد كان فتحُ مكة فتحاً ـ ونحن نعدُّ الفتحَ (بيعةَ الرضوان) يوم الحديبية!!

ثم قال: وقولُه تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ هذا من خصائصه عليه الصلاة والسلام، التي لا يشاركه فيها غيرُه، وهذا فيه تشريفٌ عظيم لرسول اللَّه ﷺ، وهو في جميع أموره على الطاعة والبرّ، والاستقامة التي لم ينلها بشر سواه، لا من الأولين ولا من الآخرين، وهو ﷺ أكملُ البشر على الإطلاق، وسيّدهم في الدنيا والآخرة، ولمَّا أطاع اللَّهَ في ذلك، وأجابهم إلى الصلح، قال اللَّه تعالى له: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ...﴾[١].

(١) انظر تفسيرَ ابن كثير (سورة الفتح) ٣/ ١٦٥.

التحقيقُ فيما نُسب إلى بعض الرسل من المعاصي

قصَّةُ ما جاء في معصية آدم عليه السلام

أمّا ما ورد في معصية آدم عليه السلام، في قول اللّه عزَّ وجلَّ: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۞ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢١، ١٢٢] فقد قال بعض المفسرين: إن هذا كان قبل اختياره واصطفائه للنبوّة، بدليل قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ أي اختاره تعالى ليكون نبياً، فجعله من المقربين إليه، وتاب عليه من الزلّة، ولا يجوز أن نقول عن (آدم) إنه عصى أمر اللّه، بعد أن شرّفه اللّه بالرسالة!!

وقال آخرون: إنما أكل آدم من الشجرة اجتهاداً، فقد نهاه ربُّه عن شجرة معيّنة أن يأكل منها، فتركها وأكل من شجرة أخرى من جنسها، فَحَمَل النَّهيَ على أن المراد شجرة بعينها دون جنسها، كمن دخل على بستان فيه شجر كثير من الرمّان، فنهاه صاحب البستان وأشار إلى شجرة معينة فقال: لا تأكل من هذه.

والصحيحُ في هذا الموضوع أنَّ آدم إنَّما أكلَ من الشجرة ناسياً، ولم يتعمد مخالفة أمر اللّه، بدليل قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥].

أي وصّيناه وأمرناه أن لا يأكل من الشجرة حين أسكناه الجنة، فنسي الوصية، ولم نجد له عزماً على ارتكاب المعصية، ومخالفة أمر اللّه، واللّهُ تعالى لا يؤاخذ أحداً على النسيان، كما قال سبحانه: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾!! [البقرة: ٢٨٦].

قال الحسن البصري: واللّهِ ما عَصَى آدمُ عن قصدٍ وعمد، إنَّما كان عن غفلة ونسيان[١].!

❁❁❁

(١) تفسير ابن كثير (سورة طه) ٣/ ١٦٠ وذكر قصة محاجّة (موسى مع آدم) وهي مذكورة في الصحيحين.

قصَّةُ قتل موسى عليه السلام للقبطي

وفي قصة قتل موسى للقبطيّ من أتباع فرعون ـ وقتلُ النفس كبيرةٌ من الكبائر ـ إذا قيل: كيف حصلت من (موسى) عليه السلام؟ أليست ذنباً ومعصية؟ أليست تخلُّ بعصمة الأنبياء؟

فالجواب عن ذلك: أن موسى عليه السلام، ما أقدم على قتل الرجل متعمداً وإنما وقع القتل خطأً، ولْنرجع إلى القصة من بدايتها، لنرى أن القتل منه إنما وقع خطأً وليس عمداً، وهذا ما وضَّحته الآياتُ الكريمة، اقرأ معي قول الله تعالى:

﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ • قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٥، ١٦].

تفصيل القصَّة في مقتل القبطيّ

وتفصيلُ القصة كما ذكرها المفسرون: أنَّ موسى عليه السلام دخل مدينة مصر ـ القاهرة ـ خارجاً من قصر فرعون، الذي تربَّى فيه، حتى كان النَّاسُ يسمونه (ابنَ فرعون) لأنَّ الملك تبنَّاه!

دخلَ وقت الظهيرة عند راحة الناس، وقد خلت الطرق من المارَّة، فوجد رجلين يقتتلان، أحدهما (إسرائيلي) من جماعة موسى، والآخر (قبطي) من جماعة فرعون وحاشيته، فاستنجد الإسرائيليُّ بموسى، وطلب منه أن يغيثه، فأقبل ليدفع أذاه عن هذا الرجل المظلوم، فلمَّا لم يمتنع، ضربه موسى بِجُمْع يده ـ أي لَكَمَه كلمةً واحدة ـ فخرَّ القبطي ميتاً لا حراك به، ومعلوم أن ضربةً باليد لا تُميت، ولكنها كانت القاضية.

ثم إنَّ الآية صريحة في أن الضربة كانت خفيفة ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ لم يقل تعالى: ضربه بالسيف، أو بعصا غليظة فقتله، وإنما قال (فوكزه) والوكزُ: الضربُ باليد مجموعة وهي لا تقتل في العادة.!

وإنما استغفر ربه من هذا الصنيع، لما يترتب عليه من الفتنة، لأن القتيل كان من حاشية فرعون، والشيطان تُفرحه الفتن! ولا حاجة لنا إلى القول، بأن قتله للقبطي كان قبل النبوَّة، فإن الأنبياء معصومون عن الكبائر، قبل النبوَّة وبعدها، فتدبر هذا والله يرعاك!!

obeikandl.com

قصَّةُ يونس عليه السلام وابتلاع الحوت له

وما ذُكر في القرآن الكريم، من مخالفة نبي الله (يونس) عليه السلام لأمر الله تعالى، ومعاقبته بابتلاع الحوت له، في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٢].

وقوله سبحانه: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨].

فإنَّ قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي آتٍ بما يُلام عليه ـ ومعناه المخالفةُ والمعصيةُ ـ وهذا يُثبت أنه عصى أمر الله تعالى.!

والجواب عن ذلك: أن الملامة له، لم تكن بسبب ارتكابه لمعصية، أو منكرٍ شنيع فَعَله، وإنما لخروجه عن قومه بدون إذن ربه، وهذا بالنسبة لمقامه الشريف تقصير، يؤاخذ عليه ويُلام.

غضَبهُ على قومه ومفارقتُه لهم

لقد قاده غضبه على قومه، أن يهجرهم ويذهب إلى شاطئ البحر، ويركب في سفينة مملوءة بالرجال، وهاج بهم البحر وماج، حتى أشرفت السفينةُ على الغرق، فقال بعضهم: هنا عبدٌ آبقٌ من سيده، ولا بدَّ لنجاتنا من إلقائه في البحر، فاقترعوا فوقعت القرعةُ على (يونس) عليه السلام، فألقوه في البحر، فالتقمه حوت عظيم، بأمر الله تعالى، وأمر الله الحوت أن لا يهشمَ له لحماً، ولا يكسر له عظماً، وإنما جُعل بطنُ الحوت سجناً له، فبقي حياً يسبِّح اللهَ ويستغفره، ثم ألقاه الحوت في الفضاء، وتاب الله عليه من هذه الزلَّة، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ فكانت الخطيئة منه، أنه هَجَر قومه وتركهم، دون إذنٍ من ربه، فعاقبه الله بإدخاله في بطن

الحوت، لحكمةٍ جليلة، وهي ظهورُ (المعجزة الإلٰهية) أن اللّٰه قادرٌ على أن يُبقي الإنسانَ حياً، حتى ولو كان في لُجّة البحر، وفي بطن الحوت.

وامتحاناً لإيمان البشر بقدرة ربِّ العالمين، ولهذا قال بعده: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وهنا نقطة مهمة ينبغي أن نلحظها، ونفهمها فهماً صحيحاً سليماً، وهي قوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ أي غاضباً على قومه ـ لا مُغاضباً لربه ـ ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي ظنَّ أن اللّٰه لن يُضيِّق عليه، لتركه قومه دون استئذان من اللّٰه، فهو من القَدْر بمعنى التضييق، كقوله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ...﴾ [الطلاق: ٧] أي من ضُيِّق عليه في رزقه فلْينفق بقدر استطاعته، لا من (القُدرة) لأن من ظنَّ عجز اللّٰه فهو كافر، فكيف يظنُّ نبيُّ اللّٰه (يونس) عليه السلام أن اللّٰه لا يقدر عليه؟ فتنبّه للمعنى فإنه خطير ودقيق.

وممّا ذكرناه يتضح لنا بجلاء (عصمة الأنبياء) وأنهم معصومون عن الجرائم والكبائر، وعن كلِّ المعاصي والمنكرات، لأنهم القدوةُ للبشر، وعلى وجه الخصوص سيد الأنبياء محمد ﷺ، فهو المَثَلُ الأعلى في التُّقى والصلاح، والبعد عن انتهاك محارم اللّٰه، ولهذا قال ﷺ لمن أراد أن يصلّي الليل ولا يرقد، ويصوم الدهر ولا يفطر، ويعتزل النساء فلا يتزوّج: (أَمَا واللّٰهِ إني لأخشاكم للّٰهِ، وأتقاكم له، لكنّي أصوم وأُفطر، وأصلّي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سُنّتي، فليس منّي)[1].

فالمعصية من الرسل لا تقع، وارتكاب الذنب عمداً لا يُتصور منهم، لما أكرمهم اللّٰه به من (العصمة)، قبل النبوّة وبعدها.!

قال أهل التفسير: في قول اللّٰه عزَّ وجلَّ: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ [الشرح: ٢، ٣].

المراد بالوزر في الآية: الأمورُ التي فَعَلها الرسول عن اجتهاد وعُوتب

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم، وهو حديث مشهور.

عليها، كأخذه الفداء من أسرى بدر، وإذنه لبعض المنافقين في عدم الخروج للجهاد، وعبوسه في وجه الأعمى، وأمثالِ ذلك، ممَّا فعله ﷺ عن اجتهاد، ولا يراد بالوزر: الذنوبُ والمعاصي والمنكراتُ، فإن العصمة من خصائص الأنبياء، وما يفعلونه عن غير قصدٍ، يعتبر بالنسبة لمقامهم الشريف، كأنه ذنب يؤاخذون عليه.

❁❁❁

obeikandl.com